أبطالنا المنسوين وأمجادنا المغمورة

لكل أمة أبطالها التاريخيون في كل نواحي البطولة، تضربهم أمثالاً لأبنائها الناشئين، وتعرض حياتهم في شتى الصور، فتارة تعرضها عرضًا تاريخيًا، وتارة تعرضها عرضًا تحليليًا، وتارة تحوك حول سيرتهم القصص، ومرة تصوغ حولهم الأساطير، وذلك حسب الطبقات التي تقدم لها الأمثال من حياة هؤلاء الأبطال.

فحين تخاطب الجماهير الساذجة والأطفال الصغار تختار طريق الأساطير والقصص لأنها الطريقة المحببة إلى الأطفال وإلى الجماهير، والوسيلة المؤثرة في نفوسهم، الحبيبة على قلوبهم.

وحين تخاطب طلاب العلم ورجال البحث، تختار طريق العرض التاريخي أو السير التحليلية، لأنها الطريقة اللائقة بالعقول المفكرة والحقائق المدروسة.

وهي في جميع الحالات تحيط هؤلاء الأبطال بهالة من الإعجاب والتقدير، تجعل منهم قدوة محبوبة للأجيال، ومُثلًا يتطلع كل فرد إلى تحقيقها في الحياة.

هذا الإعجاب وهذا التقدير، يثيران في الأمم فضائلها الكامنة، ويثيران في الأفراد قواهم المذخورة، فتبدو تلك الفضائل، وتتنبه هذه القوى، وتصبح عوامل بناء في جسم الأمة، وحوافز نهوض في نفس الشعب على مدى الأجيال.

ولهذا تتخذ الأمم الحية كل وسيلة لإبراز هؤلاء الأبطال، حتى لقد تتخذ اللعب وبعض أنواع الحلوى وسيلة للتعريف بأبطالها في نفوس الأطفال الناشئين؛ وكثيرًا ما رأينا بعض أنواع "الشكولاته" والحلوى قد لفت بغلاف أو دست فيها بطاقة تحوي صورة أو جملة أو حكاية قصيرة عن بطل من الأبطال، وكذلك اللعب وأدوات الكتابة وسواها.

وربما كانت هذه الوسيلة من أحب الوسائل إلى الأطفال، ومن أنجعها في تعريف الأبطال إليهم، لأن هذا التعريف يُحمل إليهم مع أحب الأشياء إلى نفوسهم، ويطالعونه في لحظات سرورهم ونشاطهم، ويقدم إليهم في صورة غير صورة الدرس الثقيل!

ومصر لا ينقصها الأبطال من جميع الأنواع في تاريخها المديد في العهود الفرعونية وفي عهود الإسلام على السواء، وتاريخها الطويل المتصل الحلقات يتيح لها مجموعة ضخمة من الأبطال الذين يجب أن تعتز بتاريخهم، وأن تقدس ذاكرهم، وأن تضربهم أمثالًا عالية للناشئة من أبنائها، وللجماهير من شعبها، ولطلاب الدراسات والمعرفة فيها.

ولكن تلاميذنا في المدارس وجماهيرنا في المجتمع، وطلابنا في معاهد العلم، لا يعرفون إلا القليل عن القليلين من هؤلاء الأبطال، وإنهم ليعرفون عن أبطال الأمم الأوروبية والأمريكية أضعاف ما يعلمون عن أبطال مصر خاصة والعالم الإسلامي على وجه العموم، ودعك من أبطال الشرق كله إذا أردنا أن نرسم محيطنا في أوسع حدوده.

يعرف تلاميذنا عن نابليون أكثر مما يعرفون عن رمسيس، ويعرفون عن غاريبالدي أكثر مما يعرفون عن أحمس، ويعرفون عن مارتن لوثر أكثر مما يعرفون عن محمد عبده، وهكذا وهكذا من الأسماء في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث على السواء.

أما نهضتنا القومية الأخيرة فلا يعرفون عن أبطالها إلا القليل مشوهًا أو مبتورًا في معظم الأحيان فهم لا يعرفون إلا التافه القليل عن عرابي أول زعيم قرر لشخصية المصرية احترامها ووجودها، ولا عن مصطفى كامل أول زعيم وطني نفخ في روح الكرامة القومية والنخوة الوطنية، ولا عن محمد بك فريد أول زعيم وطني ضرب مثلًا للتضحية الخارقة ولا عن سعد زغلول أول زعيم وطني عمم الشعور الوطني في جميع النفوس.

فإذا تجاوزنا مصر إلى العالم الإسلامي لم نجد تلاميذنا وطلابنا يعلمون إلا القليل الجاف عن أبطال الإسلام، ومما لا شك فيه أنهم يعرفون عن نابليون بونابرت، ونلسون، وغاريبالديويبيتهوفن، وكولمبوس، وأمثالهم أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن الناصر، والفارابي، وابن بطوطة وأمثالهم، وهذا نقص عجيب في تربيتنا القومية الإسلامية.

وإن أمة تعتمد في إثارة النخوة وحفز الهمة على أبطال من غير جنسها، لهي أمة فاشلة في تربيتها الروحية، وقد كانت تلتمس لها الأعذار لو أن تاريخها خلو من الأبطال، فأما إذا

كانت تجد منهم عشرات ومئات في التاريخ القديم والتاريخ الجديد، وفي محيطها القومي الخاص، ومحيطها الديني العام، فإنها تكون حينئذ مقصرة أشنع التقصير.

* * *

وهنا يجب أن نسجل أوائل نهضة محمودة في هذا الاتجاه، فلقد توجه جماعة من أدبائنا وجهة جديدة إلى دراسة البطولة الشرقية والمصرية، فصدرت كتب كاملة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، وعن عبد الرحمن الداخل، وعن غاندي ومصطفى كمال، وعن عمر مكرم ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد.

فيجب أن تطرد هذه النهضة فتصدر دراسات وافية عن أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي وابن سينا وافارابي وجمال الدين الأفغاني وعرابي، كما يجب أن تصدر دراسات وافية عن توت عنخ أمون وثورته الدينية، وعن بنتاءور الشاعر المصري القديم، وعن أحمس البطل المصري الذي طرد الهكسوس، وتحتمس مؤسس الإمبراطورية ورمسيس المحارب العظيم... إلخ.

على أن الدراسات العلمية والجامعية ليست هي كل ما يطلب في هذا الاتجاه، فقراء هذه الدراسات محدودون، وهم كبار السن على كل حال؛ وإنه ليعنينا قبل كل شيء أن نُعرف هؤلاء الأبطال إلى أطفالنا الصغار وإلى جماهيرنا الغفيرة، وهؤلاء لا يقرأون الدراسات العلمية، ولا يصبرون عليها، فيجب أن نقدم لهم هؤلاء الأبطال في صور أخرى جميلة وجذابة ومحبوبة.

ومما ييسر لنا هذه المهمة أن جميع الشعوب الحية قد سبقتنا إليها، ومهدت الطريق أمامنا، فليس علينا غلا ان نقتبس هذه الوسائل المهيأة المدروسة، تلك الوسائل هي القصة والأسطورة والصورة الملونة الجذابة، والحكاية القصيرة، والنادرة السريعة، نضعها في كل مكان تصل إليه أيدي الصغار وأيدي الجماهير.

فكتب المطالعة وكتب المحفوظات وكتب التاريخ، والمتاحف المدرسية والمتاحف العامة، والسينما والمسرح والأغاني، واللعب والأدوات المدرسية وصناديق الحلوى، وعلب الشيكولاتة وسواها مما يصنع داخل البلاد، يجب أن تكون جميعها وسائل لتعريف هؤلاء الأبطال إلى الجميع.

وعلى عاتق وزارة المعارف تقع التبعة الأولى بما تملك من الوسائل الكثيرة في المدرسة ودور الثقافة العامة، ولكن هذا عمل قومي يجب أن تقوم عليه هيئات أخرى بجانب وزارة المعارف، في مقدمتها هيئة الصحافة وهيئة الأدباء ودور النشر والهيئات الاجتماعية على اختلاف ميادين نشاطها في أنحاء البلاد.

لقد اشتركت في وضع كتاب مدرسي لمحفوظات الأطفال مع جماعة من الأساتذة الأدباء، فكان أول ما اتجهت إليه أنظارنا أن نضمن كتابنا قصصًا عن سير بعض الأبطال، واخترنا لذلك شخصيتين إحداهما مصرية وهي شخصية رمسيس، وثانيتهما عربية وهي شخصية صقر قريش، وحاولنا أن نرسمهما في صورة جذابة مستعينين مع الحقائق التاريخية ببعض الأساطير، ويجب أن تطرد هذه الروح في كل ما يقدم للأطفال.

والأسطورة والقصة في هذه السن هما أقرب الطرق إلى النفوس، أما حين تتقدم السن وتتسع المعرفة فتصبح السيرة والتاريخ هما الوسيلتان المناسبتان لعرض حياة الأبطال[١].

---

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية ٤/ ١٩٤٣.